الإسلام دين الرحمة

٢٩ شوال ١٤٣٦هـ الموافق ١٤ أغسطس ٢٠١٥م

العناصر:

١. أهمية خلق الرحمة.

٢. حاجة البشرية إلى هذا الخلق.

٣. صور من رحمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

٤. من مظاهر الرحمة في شريعة الإسلام.

٥. القسوة والتشدد ليسا من الدين في شيء.

٦. دعوة لنشر التراحم في المجتمع.

الأدلة من القرآن الكريم:

١. قال تعالى: {وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ} (الأنبياء:١٠٧) .

٢. وقال تعالى : {قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} (الأنعام:١٢) .

٣. وقال تعالى: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[الأعراف: ١٥٦].

٤. وقال تعالى : {فبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}(آل عمران: ١٥٩) .

٥. وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }(التوبة: ١٢٨) .

٦. وقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء:٢٩) .

الأدلة من السنة الشريفة:

١. عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنه (صلى الله عليه وسلم) قال: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ"(الترمذي في السنن) .

٢. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: "جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ"(صحيح مسلم).

٣. وعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): "إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ" (متفق عليه).

٤. وعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) قَالَ : لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ ، قَالَ : أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَى ، يَا رَسُولَ اللهِ ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَت الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ : يَقُولُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : صَدَقَتْ ، صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ. (ابن ماجة في السنن).

٥. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: " عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ"(متفق عليه) .

٦. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَايِشًا نَخْلٍ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَنَّ إِلَيْهِ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَسَحَ ذَفَرَتَهُ فَسَكَنَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ قَالَ: فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ» (المستدرك على الصحيحين للحاكم).

الموضوع:

من أهم ما تتميز به شريعة الإسلام قيمة الرحمة التي انفردت وحدها في القرآن الكريم بالصدارة ، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى ، فلقد تكررت الرحمة بمشتقاتها ثلاثمائة وخمس عشرة مرةً ، إنَّ هذا ليس مصادفة بحال من الأحوال ، فكل كلمة وكل حرف فيه نزل بقَدَر ولهدف.

والرحمة تعني الرفق والرقة والعطف والرأفة ، فهي كلمة جامعة لمكارم الأخلاق ، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: الرّحمة سبب واصل بين اللّه- عزّ وجلّ- وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبوديّة، وبينه وبينهم سبب الرّحمة.

وقد عُني نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم) بذكر هذا الخلق العظيم والتأكيد عليه في أحاديث عدة ؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أنه (صلى الله عليه وسلم) قال: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ" وعن أَبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: "جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ".

والمتأمل في حياة البشرية يجد أنها في أمس الحاجة للتخلق بهذا الخلق العظيم وإحياء هذه القيمة الغالية التي تدل على تحضر الأمم وتقدمها ، فأمة لا تعرف الرحمة في قوانينها وتعاملاتها مع البشر هي أمة متخلفة وإن ادعت التحضر و التقدم .

إن نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) أقام دولة الإسلام بالرحمة ، وكانت الرحمة هي أخص خصائصه قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:١٠٧].

بل لقد بلغت الرحمة درجة متناهية في حق الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى ذكر الله عز وجل أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم! قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..}[الأحزاب : ٦] وذكر (صلى الله عليه وسلم):"هذا المعنى تصريحًا، وحمَّل نفسه أعباء ضخمة نتيجة هذه الرحمة ،قال (صلى الله عليه وسلم):"مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ؛ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ" (متفق عليه).

إنها الرحمة المجردة تمامًا عن أي هوى، والتي ليس من ورائها نفعٌ دنيوي، ولا هدف شخصي ، لقد بلغت رحمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأمته حدًّا يفوق كل تصورات العقول، حتى إن الأمر وصل إلى خوفه عليهم من كثرة العبادة التي تعني التقرب إلى الله والتبتل إليه ، لكنه (صلى الله عليه وسلم):"كان يخشى على أمته من المبالغة في الأمر فتفقد الأمة التوازن المطلوب في حياتهم ، فيصل بهم الأمر إلى المَلل والكسل من العبادة التي هي مطلوب الخالق من خلقه ، أو يصل بهم الحد إلى الإرهاق الزائد عن طاقة الإنسان ، لذلك رأيناه (صلى الله عليه وسلم):" كثيراً ما يُعرِضُ عن عملٍ من

الأعمال، مُقرَّبٍ إلى قلبه ، محببٍ إلى نفسه ، لا لشيء إلا لخوفه أن يُفرَض على أمته فيعنتهم ويشق عليهم؛ تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : "إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم):"لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ"[متفق عليه] ولذلك كان كثيرًا ما يقول كلمة: "لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي"، دلالة على أنه يحب الأمر، ولكنه يخشى الفتنة على الأمة.

ومما تميزت به رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) الشمولية ، فوسعت كل المخلوقات ، حتى الخادم له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، فعن أَنَس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم):"عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ وَلَا لِمَ صَنَعْتَ وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ" (متفق عليه)، وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ : "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "(متفق عليه) ، والطفل كان له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ:" قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ" (متفق عليه) ، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ :" مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضَعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَكَانَ يَأْتِيهِ وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيُدَّخَنُ فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ".(رواه مسلم).

والأسير الذي جاء محاربًا ومعاندًا كان له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم) فها هي سفانة ابنة حاتم الطائي التي أُسِرت في حرب مع قبيلة طيّئ، فجُعِلَت في حظيرة بباب المسجد، فمرّ بها رسول الله ؛ فقامت إليه، وكانت امرأةً جَزْلة[عاقلة]؛ فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامْنُنْ علَيّ مَنّ الله عليك ، فقال رسول الله : " قَدْ فَعَلْتُ، فَلا تَعْجَلِي بِخُرُوجٍ حَتّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكِ مَنْ يَكُونُ لَهُ ثِقَةً حَتّى يُبَلِّغَكِ إِلَى بِلادِكِ ، ثُمّ آذِنِينِي". تقول ابنة حاتم الطائي: وأقمْتُ حتى قَدِمَ رَكْبٌ من بَلِيٍّ أو قضاعة ، وإنما أُرِيد أن آتي أخي بالشام ، فجئتُ فقلتُ: يا رسول الله ، قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقةٌ وبلاغ. قالت: فكساني ، وحَمَلَني ، وأعطاني نفقة ، فخرجتُ معهم حتى قَدِمْتُ الشام"(سيرة ابن هشام).

وكان الضعيف له نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم) فعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) قَالَ : لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ ، قَالَ : أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَى ، يَا رَسُولَ اللهِ ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ

اللَّهُ الْكُرْسِيَّ ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ : يَقُولُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) صَدَقَتْ ، صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ. (ابن ماجة في السنن).

والحيوان له أيضا نصيب من رحمته (صلى الله عليه وسلم):"، فعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم):"دخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم):"حنّ وذرفت عيناه فأتاه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ظفراه فسكت، فقال (صلى الله عليه وسلم) من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟" فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له : " أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ " (رواه أبو داود في سننه)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): قَالَ: " عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ"(متفق عليه).

إنها الرحمة التي حث عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبرنا أنه لن يرحم الله تعالى إلا أصحابها، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه و سلم): "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ"(سنن الترمذي)،

ولم تقتصر الرحمة النبوية على حياة المسلمين في المجتمع الإسلامي بل تعدت ذلك إلى آداب الحرب في أوقات القتال لتنبه وتؤكد طابع الحرب في الإسلام من حيث كونها حربا دفاعية تهدف إلى البناء لا الهدم ، وإلى التعمير لا التخريب ، وتسعى لإتاحة حرية الاختيار، ويبدو خلق الرحمة النبوية واضحا في الحرب حيث يوصي النبي (صلى الله عليه وسلم) بقتال المحاربين فقط وعدم قتل الأطفال والشيوخ والعباد الذين تفرغوا للعبادة وعدم حرق الأشجار ولا الممتلكات ولا انتهاك الأعراض.

هذه الصور العظيمة للرحمة في حياة النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تعبر عن الرحمة التي أسكنها الله قلبه الشريف ، ففرج الله ببركتها الكثير من الهموم عن أصحابها ، وفتح بها أبواب الخير والبركة ، قال تعالى {فبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: ١٥٩). فشريعة الإسلام هي شريعة الرحمة واليسر ورفع الحرج ، قال تعالى:{ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}(النساء: ٢٨).

فالشَّارِعُ الحكيم الرحيم لَمْ يَقْصِدْ إِلَى التَّكْلِيفِ بِالشَّاقِّ وَالعنت فِيهِ قال تعالى :{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } (البقرة: ١٨٥) وقال أيضا :{ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا }(البقرة: ٢٨٦).

ومن مظاهر الرحمة في التشريع الإسلامي أن أباح الصلاة للمريض على أي وجه يتحقق له من خلاله رفع الحرج ، فعن عمران بن حصين (رضي الله عنه) قال: "كانت بي بواسير، فسألت النبي (صلى الله عليه وسلم): عن الصلاة، فقال: "صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب " . (أخرجه البخاري).

ومن مظاهر الرحمة في التشريع الإسلامي أن حرم الاعتداء على أموال الناس ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (النساء: ٢٩).

ومن مظاهر الرحمة في التشريع الإسلامي أنه لم يؤاخذ العبد ساعة الإكراه حتى ولو تلفظ بالكفر ، قال تعالى{ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النحل: ١٠٦) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وقد روى العَوفِيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمَّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فوافقهم على ذلك مُكرَها وجاء معتذرًا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك وقتادة.

ومن مظاهر الرحمة المتعددة في التشريع الإسلامي أنه رفع الحرج عن المعاقين والمرضى ، قال تعالى{ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا }(الفتح: ١٧)

وغير ذلك الكثير والكثير من صور الرحمة في التشريع الإسلامي التي تدل دلالة واضحة لذي عينين وقلب سليم أن الإسلام في مظهره وجوهره هو دين الرحمة واليسر ومراعاة مصالح العباد، فالتشدد والتطرف والقسوة والغلظة ليسوا من مبادئ الإسلام ، فهي أمور تتنافى جملة وتفصيلا مع تعاليم الإسلام السمحة ، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُكَرِّهْ عِبَادَةَ اللهِ إِلَى عِبَادِهِ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا يَقْطَعُ سَفَرًا وَلَا يَسْتَبْقِي ظَهْرًا " (البيهقي في شعب الإيمان).

وجَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ، وَلاَ أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. (رواه البخاري).

فعلى جميع أفراد المجتمع أن يتخلقوا بهذا الخلق العظيم الذي يعكس تدين العبد الصحيح ومدى التزامه بتعاليم الإسلام السمحة واقتدائه بنبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم) ، ولنترجم هذه القيمة ـ قيمة الرحمة ـ إلى سلوك عملي في حياتنا ، وأولى الناس برحمتنا الآباء والأبناء، والأزواج والزوجات ، والجيران ، وزملاء العمل ، وسائر أبناء الوطن الواحد ،طالما أننا نجتمع تحت مسمى الإنسانية .

إن المؤمن حينما يتصل بالله يتخلق بخلق الرحمة، فالرحمة التي في قلبه علامة اتصاله بالله، وغير المؤمن حينما ينقطع عن الله عز وجل، يصبح قلبه كالصخر الأصم، لا ينطوي على الرحمة، ساعتها يتحقق فيه قول النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) : من لا يرحم لا يُرحم.

إننا إن فعلنا ذلك تحقق فينا قوله (صلى الله عليه وسلم): "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(أخرجه مسلم).

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرفُ عنا سيئها إلا أنت.